المرشد في طب العين

عرض : د . دحام اسماعيل العاني

من حق الأمم بلا جدال، أن تفخر بتراثها وتسعى لتأصيل جذورها في سجلات التاريخ المشرقة. ولن يكون في ذلك التغني بأمجاد الماضي ما يعيب تلك الأمم من أجل بعثها على تجديد سيادتها وتفوقها الحضاري المستقبلي، إلا أن مسألة تحقيق التراث العلمي لأمتنا يجب أن يكتسب اهتماما خاصا من زوايا أخرى، فهو إلى جانب كونه جهداً مشروعاً بل وواجباً جليلاً على الامة بخاصة وعلى الإنسانية بعامة ، فإن ذلك يساهم في إحياء وإثراء المصطلح العلمي للغة العربية وتوظيفها من جديد في البناء الحضاري للأمة وللإنسانية جمعاء، وقد تقلد هذا الدور كثير من المستشرقين الغربيين والعلماء العرب فزخرت المكتبات بمئات الكتب التي تجلى كنوز هذا التراث وتمسح عنه غبار الزمن ليتواصل بناء المعارف بشتى ضروبها وفروعها .

وقد حاول بعض الغربيين تقليص اسهامات علماء المسلمين على الأدب والفلسفة والرياضيات والفلك وتجاهلوا الطب والصيدلة والكيمياء ، إلا أن ذلك الإجحاف باء بالفشل بإنصاف الأمناء منهم مثل **جورج سارتون ووول ديورانت وادوارد نورث ووليم ارسلر ورام لاندو وزيغريد هونكه وكارل بوير ورونالد كامبل وموريس كروسلاند** وغيرهم . فقد اعترف هؤلاء الدارسين بسيادة العلماء والأطباء العرب خلال اشراقة الحضارة الإسلامية على العالم.

ويعد طب العيون برأي كثير من المؤرخين أحد ابداعات الحضارة الإسلامية، فلم يكن معروفا قبلها وأصبح نتاج جهدها وبلغ آفاقا سامية بحيث بقيت آثارها فيه منهلا للجامعات الأوروبية حتى القرن الثامن عشر. ويسجل التاريخ على مدى القرون العشرة الهجرية الاولى ذيوع صيت كثير من أطباء العيون العرب والمسلمين ممن تحتفظ المكتبات العريقة بآثارهم النفيسة مثل عمار بن علي الموصلي وعلي بن عيسى الكحال وحنين بن اسحاق وجبرائيل ابن بختيشوع وحبيش بن الاعسم وابن النفيس. ومن بين هؤلاء محمد بن قسوم الغافقي الذي نحن في صدد عرض تحقيق كتابه «المرشد في طب العيون» الذي قام بتحقيقه وإجلاء ما خفي منه كل من العالمين الفاضلين د. محمد رواس قلعجي والدكتور محمد ظافر الوفائي ضمن عمل علمي كبير هو تحقيق سلسلة التراث الطبي - علم الكحالة. إذ انجز منها حتى الآن سبعة مؤلفات قيمة.والمرشد في طب العيون أو المرشد في الكحل كما سماه مؤلفه محمد بن قسوم بن أسلم الغافقي الأندلسي من إصدارات **مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية** لعام ١٩٩٠م.

يضم الكتاب ستا وثلاثين وخمسمائة صفحة شاملة مقدمة المحققين عن الكتاب والمؤلف ومقالاته الست وملاحقه الأربعة .وقد أعاد المحققان تبويب الكتاب لتسهيل فهمه، حيث لم يحسن المؤلف تبويبه بالشكل العلمي الذي يسهل للقارىء التغلغل في طياته دون ربك أو انقطاع، فقسمت المقالة إلى أبواب والباب إلى فصول ، وكل فصل يشتمل على جملة من الأبحاث ، وقد يرد عنوان لكل مجموعة من الفصول يشير الى محتواها.واعتمد المحققان في عملهما على نسخة من مخطوطة مكتبة الأسكوريال في أسبانيا وعلى مخطوطتين من دار الكتب القومية في القاهرة، كما استعانا بترجمة ماكس مايرهوف إلى الفرنسية زيادة في تحري الدقة في عملهما.

استهل المؤلف كتابه بما يشبه التمهيد له، فذكر بعض الكتب المؤلفة في طب العين ثم عرض تقسيمه للكتاب ومحتوى كل مقالة منه. ويبدو أن ما أورده هنا لا يطابق المحتوى الذي أُلف عليه الكتاب، كما انه لم يشر الى المقالة السادسة في الكتاب وهي من أوسع المقالات وأهمها فيه .

قسمت **المقالة الأولى** إلى أربعة أبواب، عرض في أولها وصايا أبقراط. فأبقراط الحكيم اليوناني المشهور وواضع قسم الطب المتعارف عليه كان مرجعا لكل من عمل طبيبا في ذلك العصر، ومن هنا اكتسبت وصاياه أهميتها الخاصة، فافرد لها مؤلف الكتاب بابه الأول مناديا من يريد أن يكون طبيبا فاضلا الإقتداء بها لانها تجعل المتطبب طاهرا عفيفا يتقي الله ويخشاه .

تعرض المؤلف في الباب الثاني إلى نفع مهنة الطب وشرفها وفضلها، ثم انتقل إلى أهمية العين وحكمة الله عز وجل في خلقها على هذا الشكل، وأورد بعد ذلك تعريفات أخرى عن الصحة وحفظها وعن الطبيعة وما يتصل منها بالصحة.

تحدث المؤلف في الباب الثالث عن الاسطقسات، وعني بالاسطقس الأشياء المركبة البسيطة وذكر منها الهواء والماء والأرض والنار، ونوه الى أنواعها وصفاتها.أما الباب الرابع والأخير من هذه المقالة فشرح فيه مزاج العين الطبيعي وأنواعه وأقسامه ، ثم انتقل بعد ذلك للحديث عن الأخلاط وأجناسها .

أما **المقالة الثانية** فمثل الأولى لم يضع المؤلف لها عنوانا محددا وقسمها إلى تسعة أبواب ، تناول في أولها الكلام عن أعضاء العين وأهمية هذه الأعضاء مثل الشرايين والعضلات والأربطة، وبين في الباب الثاني صفة أعصاب العين وعددها ومنشأها، كما تحدث في الباب الثالث عن صفة العروق غير الضوارب وذكر أنهما عرقان ينبعثان من الكبد الى بقية أعضاء الجسم لتغذيتها، كذلك شرح في الباب الرابع وهو في صفة العروق الضوارب - المسماة شرايين - الطبقات المكونة لها ، فأشار إلى أن ليفها إما داخلي أو خارجي .

ذكر المؤلف في الباب الخامس وهو في جملة الكلام عن الأعضاء المركبة من غضل العين، أن العضل مركب من لحم أحمر ورباط وعصب وغشاء، وأن عضلات العين الواحدة أربع وعشرون عضلة، إلا أن الثابت علميا أن عضلات العين الواحدة هي ست عضلات، أربع منها مستقيمة واثنتان منحرفتان .

وفي الباب السادس وهو في صفة العين وتركيبها ذكر أن العين الواحدة مركبة من عشرة أجزاء هي سبع طبقات وثلاث رطوبات ،أما الطبقات فهي الشبكية والعنكبوتية والمشيمية والقرنية والعنبية والملتحمة والصلبة، وأما الرطوبات فهي الرطوبة الجليدية والبيضية والشبيهة بالزجاج، وانتقل للحديث عن اختلاف الناس في طبقات العين وتباين آرائهم ، والجدير بالذكر أنه قد ثبت علميا أن طبقات العين هي خمس طبقات .

تناول المؤلف في الباب السابع صفة حاسة البصر وذكر أنها ألطف الحواس وعدَّد ميزاتها، أما في الباب الثامن فتحدث عن صفة الروح النفساني ذاكرا أن الأرواح ثلاث هي روح طبيعي وروح حيواني وروح نفساني ، ووضح أن الطبيعي هو ما ينشأ في الكبد ويجري في العروق غير الضوارب إلى سائر البدن وتقوى به القوى الطبيعية ، وأن الروح الحيواني هو ما يلد في القلب وينفذ في العروق الضوارب إلى سائر البدن ويقوِّي القوى الحيوانية ويحفظها،أما الروح النفساني فهو ما يلد في الدماغ وينفذ من العصب إلى سائر البدن ويعزز القوى النفسانية وينميها ويحفظها.وذكر المؤلف في الباب التاسع ما تحدثه الأمور الطبعية مشيرا إلى أنه عندما تكون الأمور طبعية تتجلى صحة العين وقوامها ، وعندما تتغير الامور عن الطبعية ويزول اعتدالها يكون مرض العين ، وهكذا فهناك ثلاث حالات للعين هي الصحيحة، والمريضة، والثالثة عندما لا تكون صحيحة ولا مريضة أو متوسطة بين الصحيحة والمريضة .

خص الكاتب **المقالة الثالثة** للحديث عن الأمور التي ليست طبعية وقسمها إلى ستة أبواب متناولا في الباب الأول صفات الهواء وعلاقته بمزاج الإنسان، ووصف الهواء في كل فصل من فصول السنة وما يمكن ان يسببه للبدن والعين بشكل خاص .

تضمن الباب الثاني الرياضة وما تفعله في البدن ومدى حاجته لها،أما الباب الثالث فكان عن الأغذية، وقسم إلى فصول تحدث المؤلف في كل فصل منها عن نوع من هذه الأغذية، فكتب عن الحبوب والبقول وأصول النبات وثمرها وثمار الأشجار الكبيرة والبرية والجبلية. ثم عن اللحوم وأنواعها من لحوم الطيور والأسماك ومنتجات الحيوان ، وأخيراً عن العسل والسكر والماء وأنواع الشراب، وذكر علاقة كل مادة بالبدن وأثرها عليه.

خص الكاتب الباب الرابع بأنواع الاستفراغ الطبيعي ، فتحدث عن الاستحمام وأثره على الصحة بشكل عام وعلى العين بشكل خاص، ثم عن الجماع وفعله بالبدن ،وأخيرا عن بعض الإستفراغات الطبيعية الأخرى كالبراز ودم الطمث .وفي الباب الخامس تحدث عن النوم واليقظة وفي كلاهما نوه عن النوم الطبعي واليقظة الطبعية، ثم عن النوم واليقظة الخارجة عن الأمور الطبعية .وتناول في الباب السادس والأخير من هذه المقالة باختصار شديد الأعراض النفسية كالغضب والحزن والخوف وما تسببه للبصر.

جاء عنوان **المقالة الرابعة** الأمور الخارجة عن الأمور الطبعية، وقصد المؤلف بذلك الأمراض وأسبابها وأعراض تلك الأمراض. وقد قسم المؤلف هذه المقالة إلى ثمانية عشر بابا تناولت تفسيره للأمور الخارجة عن الأمور الطبعية، ثم تحدث عن الأمراض وأجناسها وأصنافها ،وعن صفة الأمراض الآلية وأسبابها وأمراض تفرق الاتصال والأمراض المتشابهة الأجزاء واعراض تلك الأمراض والأعراض الداخلة على حاسة البصر واللذة والوجع والأعراض الداخلة على الحركة الارادية والأعراض الناجمة عن المرض ، ثم أنهى المؤلف الحديث عن الدلائل أي الأعراض التابعة للأمراض وتصنيفها. ويلاحظ القارىء عموما أن المؤلف يسهب في الحديث عن كل شيء يتطرق له رغم عدم علاقة ذلك مباشرة بالعين، وربما يعزى ذلك إلى رغبته ان يكون مؤلفه شاملا على كل شيء ومرجعا في الكحالة لا يفوته مسألة وفق علوم ذلك العصر.

تناول الكاتب في الباب الأول من **المقالة الخامسة** أجناس الأدوية التي يداوى بها الأمراض الثلاثة التي ذكرها في مقالته الرابعة،وصنف هذه الأدوية إلى سبعة أجناس ، ثم شرح استخدام كل جنس منها. بعد ذلك انتقل للحديث عن تحضير وتوليف أدوية العين بشكل عام، وأشار إلى الأسس الضرورية لتحضيرها وأفضل الأوقات لذلك ، ثم طريقة معالجة العين بالدواء مشيراً إلى بعض القواعد العامة في العلاج. وانتقل إلى الأدوية المفردة ورتَّبها أبجديا فشرح سبعة وعشرين ومئة دواء، ثم ا نتقل إلى الأدوية المسهلة للصفراء والأدوية المسهلة للبلغم والسوداء والأدوية التي لها صبر وذكر تصنيفها والعلاج بها. وأنهى المؤلف هذه المقالة بالحديث عن القوانين التي يجب على الطبيب استعمالها عند كل استفراغ، وعن حفظ صحة العين، وأخيرا عن الألوان النافعة والضارة بالبصر .

احتلت **المقالة السادسة** والأخيرة أكثر من نصف الكتاب وهى تعد جوهره، وقسمت إلى ثمانية أبواب كبيرة تناولت الصداع وأسبابه وعلاجاته . وقد استهلها الكاتب بالحديث عن أنواع الصداع وأسبابه. ثم شرح أعراض كل نوع وكيفية علاجه،كما أفرد للصدع المسمى الشقيقة (Migraine headache) عنواناً منفصلاً وناقش مصدرها وعلاجها. بعد ذلك انتقل للحديث عن الأضمدة وأنواعها ذاكراً ما قاله جالينوس الحكيم اليوناني في تصنيفها ، مستطرداً بعد ذلك في شرح تحضير ها ،ثم انتقل للحديث عن الأدوية التي تعالج بها منطقة العين.بعد ذلك تناول الجروح التي تصيب الرأس، وكي الصداع والشقيقة بأنواعهما المختلفة، وكي الدموع المزمنة والماء النازل من العين، وأمراض العيون التي تصيب الصبيان .

يعدالقسم المتبقي من الكتاب لبه لأنه يتناول الحديث عن أمراض الجفن والمآق والملتحمة والحجاب القرني والعنبية والبيضية، وباختصار فهو يتناول العين بأجزائها المختلفة، ففي أمراض الجفن وضروب كل مرض ذكر المؤلف أن عددها سبعة وثلاثين مرضا. وعلى سبيل المثال تحدث عن أصناف الجرب الأربعة وأسبابها وعلاجها، ويقصد هنا بالجرب ما يسمى حاليا بالتراخوما ، بعد ذلك استعرض ثلاثة أمراض للمآق وسبل علاج كل منها . وثلاثة عشر مرضا للملتحمة أسهب في شرحها وعلاجها . ثم انتقل لشرح أمراض الحجاب القرني. و تحدث عن تغير لون القرنية وأسبابه ورطوبة الحجاب القرني ويبسه ونتوء القرنية وانخراقها . بعد ذلك انتقل إلى أمراض العنبية وهي الأمراض التي تصيب الحدقة وسماها ثقب العنبية ، ثم تناول بعد ذلك العديد من الأمراض المتعلقة بالإبصار. وقد خص الكاتب الجزء الأخير من المقالة السادسة للحديث عن الشافيات (المراهم) والأكحال والذرورات التي تعالج بها أمراض العين .

على الرغم من أن الكتاب الأصلي كما ألفه الغافقي الأندلسي ينتهي بالمقالة السادسة، إلا أن المحقق لم يترك الكتاب دون إضافة، بل ذيله بأربعة ملاحق أثْرت الكتاب وكانت بحق جهدا علميا توج الجهد الذي بذل في تحقيقه. فقد أضاف الدكتور محمد ظافر وفائي ملحقا يتضمن كل الأدوية المفردة التي وردت في الكتاب حيث تجاوز عددها خمسمائة دواء ، وخصص الملحق الثاني لأسماء الأعلام الذين برزوا في الكحالة والطب من عرب ويونان، وترجم لكل علم من هؤلاء الأعلام نبذة عن حياته وما اشتهر به والمصادر التي أوردت ذكره،وفي الملحق الثالث جمع أشهر عناوين الكتب في الطب والكحالة، أما الملحق الرابع والأخير فقد خصصه للأدوية المركبة الواردة في الكتب وأشار إلى مواضعها فيه .

مجمل القول أن الكتاب قد حوى علماً كثيراً ، ولا شك أنه كان مرجعاً في عصره لأنه ضم بين دفتيه حصيلة اطلاع المؤلف على أعمال من سبقوه في الطب والكحالة. وقد كان المؤلف حريصا على أن يكون عمله كاملاً لا يفوته شيء في ذلك الزمان ، ولهذا فقد ضمنه كل ما يحتاج إليه في طب العيون.إلا أن الكتاب كما أشار المحققان، جاء ضعيفاً مضطرباً من الناحية التصنيفية والتبويب كما أنه غير منظم . ولولا الجهد العلمي الرائع الرصين الذي بذله المحققان لإعادة تصنيفه وتبويبه لكان سيئا من هذا الجانب، كذلك أثرى المحققان الهوامش بملاحظات علمية قيمة نتيجة اطلاعهم على ما كتبه السابقون في هذا المجال مثل على بن عيسى الكحال وعمار بن على الموصلي، وأشاروا الى مصدر كل فقرة ذكرها المؤلف ومن أين استقاها كلما دعت الحاجة. ذكر المحققان أيضا المرادفات الدارجة للأسماء العلمية الواردة في الكتاب أو المقصود بها في اللغة الإنجليزية، وهذا ما يكسب العمل أهميته الحالية، ففي إحياء هذه المصطلحات العلمية توظيف جديد للغة العربية وتأكيد لقدرتها على أن تكون لغة العلوم كما هي لغة الأدب .

في نهاية هذا العرض لابد من الإشارة الى أن المؤلف لم يشع ذكره وينتشر صيته حتى يغري المؤرخين بكتابة سيرته أو الإشادة بعلمه،فبقي مغمورا إلى حد كبير مقارنة بأقرانه الذين سجلهم التراث وبقيت آثارهم . ولكن بتكامل علم المحققين الفاضلين محمد رواس قلعجي ومحمد ظافر وفائي تم نفض غبار العصور عن هذا الكتاب الذي بين أيدينا لنستوقف الزمن ونلتفت إلى ثمانية قرون سالفة جاد فيها أجدادنا على العالم بعلم غزير وحضارة ناصعة نستلهم منها ما يبعثنا من رقادنا الذي طال أمده ونسأل الله أن تكون ملامح الفجر على مشارف الأفق القريب .